قضايا الأدب والأدباء

بين توفيق يوسف عواد وابنته سامية توتونجي

ميلاد شاعرة

سامية توتونجي ، صاحبة « حضور من كل فج » Multiples Présences المجموعة الشعرية (باللغة الفرنسية) التي صدرت حديثا ـ هي ابنة توفيق يوسف عواد .

ولكن صاحب « الرغيف » يحرص على عكس هذا التعريف .

كتب اليها من طوكيو (*) في اوائل ١٩٦٧ على اثر اطلاعه على بعض قصائدها رسالة نجدها في كتابه « فرسان الكلام » يصور فيها انطباعاته ، ويقابل بين شعر جيله « ابن المبادىء المكرسة والقواعد المقررة » وشعر الجيل الجديد ، جيلها ، « الذي ثار على النواميس وحطم المقاييس » .

ومن طريف ما ورد في تلك الرسالة وصف القصر المسحور الذي يعيش فيه الشاعر ـ والفنان اطلاقا ـ القصر الذي تدخله سامية توتونجي بعد أبيها ، لاحقة بأبيها كما يقول :

« أي مارد من الجن اختطف طفلتي الحلوة الى قصره المسحور ؟ في أي ليل وكيف حبسها وراء الكوة في العلية التي جدرانها من ذهب ودماء ، وسقفها من فيروز وصواعق ؟

تلحقين بأبيك ؟

ولكن له ، هو ، مقصورة أخرى مفتاحها في جيبه . مفتاح لص لا يمتنع عليه مقفل من الابواب . وبه يستعين بين الحين والحين فيغافل المارد ، يهجر سراديبه وتهاويله ويعود الى دنيا الناس .

كيف لي بعد اليوم ان اتركك في ذلك القصر الملعون؟ أم تصنعين لنفسك مثل مفتاحي ؟.. »

ثم يهتف في ختام رسالته :

« مرة أخرى ، لحقت بي ؟

بل أنت في النهاية السابقة وأنا اللاحق

أنت الشاعرة

وان أباك الضخم كونك لي بنتا » .

***

وبعد سنة وبعض السنة ، حينما يصدر لسامية توتونجي ديوانها المذكور تكتب الى أبيها من بيروت :

(*) حيث يشغل منصب سفير لبنان

توفيق يوسف عواد

سامية توتونجي

« مصيبة ان يكون الانسان كاتبا
ومصيبتان اذا كان شاعرا » .

يا له من قدر ! مسراته فينا لا تضاهيها الا مراراته في عالم الواقع ، بازاء الآخرين .

والفخ متجدد ابدا . فكلما عدت الى نفسي عاودتني الصور أبهى ، والكلمات لامتناهية ... كي اندفع وراءها بكل جوارحي ، كي أعطي نفسي بكلتيها .

ومع الوقت ينتصب جدار بين هذين العالمين . هذا الجدار هو نحن . هو هذا الجسد . هذا القناع المتحرك أبدا ، على انه من فولاذ .

ابتداء من بعض اللحظات يقف الناس جميعا وراء الحائط . لا من ينفذ الي . واذا اتفق لاحد ان يفعل فبعد جهد عظيم ، بعد الف محاولة للتخلص من رباطاته ، وكالسارق ، دائما من غير الباب الكبير . الباقي ، الباقي كله ـ يعني عالمي ـ اصنعه أنا . ربما من لا شيء . هذا اللاشيء الذي هو الطبيعة ، الذي هو غير المعبر عنه ، غير الواقع تحت اللمس .

حلم يبعث صورة . والصورة تأذن باحلام جديدة .

حينئذ يستوي الصمت على وجوهنا ونصير هذه الجوارح التي تفترس بعيونها كل شيء . تنطبع علينا الاشياء كلها ولا يبقى شيء .

أنا أنا اذ أكون وحدي . فاذا كنت في الناس انكرت نفسي . ويزداد مع الايام زيفي بينهم ولياني لهم .

« يا لها من حياة ! لا بد انك تحياها أنت يا أبي .

أنا سعيدة بانتمائي الى هذا النسل . الآخرون ارثي لهم واغبطهم ! »

***

وبعد ، هذا التعاطي بين اديب وابنته لا يقتصر على هذا . ان توفيق يوسف عواد منصرف الآن الى ترجمة قصائد سامية توتونجي الى العربية . ويسر « الآداب » ان تنشر لها وله القصائد التالية :

انـا المراة

انا المراة زينتي معادن واحجار
راسي شامخ
وحبي سريع الزوال
انا المراة المتقمصة كل النساء
زناري شقائق النعمان
انعطاف المغلوب وقفتي
وفي مشيتي تتعثر الفضيلة
انـا المراة كلها
لي المحيا الذي يعيرني اياه المحيّون
والحركات التي يحبونها

وانا اريد ان اذهب الى البحر الى الساقية الى دير مار ماريتا
اخلع على عتبته جهاز الامس :
وهبتك كل شيء
ثوبياتي الخفيفة الملونة تخليت لك عنها كلها
وانزع كل الشالات
والحزامـات
اعطيها كلها للراهبات

اليك عني ايتها السيدة الفاضلـة القابعـة خلف اهدابي
اليك عني ايتها التلميذة الداخلية الصغيرة
قوقعة البنت التي كنت اريد ان احطمها

ان الحليء بعض الموت
والشمس في القذال شحادة ...

وانت يا راس الابنوس يا حامل الشقاء بعـدا .
انا لم اعد انا . لم اعد الخلد المختبىء
ولا الارنب الذي بلون التراب ، ولا الزورق المتأرجح على الموجة الواحدة
ولا المرساة المجمدة في النسيان ذاته

اريد ان اتبرج بالطبيعة ورودا ورياحين
انزلق كالقطة بين الغلالات والشيطنات المبهمة
تـاج الائتمار
اريـد
عقد اوراق الاشجار
اريد الركبة المصنوعة وقبع الزيفان
اريـد الطيلسان
ابـا الريش

ومبرقعة بالريب
مرقشة بالانامل الحاذقة واللمسات العارفة
على المركبة البيضاء العارية في زحمة المواسم الحمر موسمـا
امـرء

الشاطىء العريان

الماء الذي وراء الاكمة احمر كالدم
وامسي مختلط لا يبين
الماء الذي وراء الاكمة يرقب ساهرا
واضلاعي تنهار كبيت عتيق .

خاتمك في اصبعي
شفتي شاطىء عريان
ما الذي صنعته باحلامنا
ما الذي صنعت حتى تغرق السماء في قعر نفسي
ساحتها الزرقاء
وتلقي الانصاب على جبيني ظلالها
كالاوتاد الضائعة

كثبان الصمت

ولكني اعود ايضا
الثلج بين اسناني
مكسرة الفطر والعوسج
اعود اليك .

اغراقاتك ـ هذه ـ في الصمت
لـديء
تصعد في كثباني
قوافل اساطير .

ذراعاي تضمانك
عارشة متأودة على تأود الحاني .
ادنيك مني
فالضجيج ملء انامليّ .
قبل ان اسلمك نفسي
اتحطم على بلاطة اجفانك

ماحية الاحلام

هل اتكلم يوما كغصن عار
كالصديق المحفور بتعدد الحضور
هل احكي نهدي ذا الملمس الغامض
والذي يخضل ؟
من اراد هذا الحجر على اصفى من انفاسي
مصقولا على مد هادىء
ساطعا بالتهاويل
من يوطّىء مضاجعنا اذ الليل لا يبهر

لن يقول الغد النفس الذي بين شفتي
ولا الصخر الواقع على بياض العين

من تكون ، انت الذي تمحو احلامنا !

سامية تونجي